

هوك نظريتي الالتزام

# المسؤولية الذاتية

بقلم عبد العزيز صدك

الفعالين ، فاذا قيل ان الفنان او الاديب شاهد فلا يعني هذا مجرد المشاهدة العينية والتسجيل - كما تذهب الواقعية البحتة وفي احسن اشكالها .. بل انه شاهد بمعنى انه حكم ، يستطيع وحده ، بما يملك من دقة الاحساس وبعد النظر وعمق الشعور والوعي ، وبالإضافة الى هذا الاحساس المفرط بالحرية والقبح والجمال ، يستطيع ان يقول كل شيء بصدق ، ان يكشف .. وهي ذي مهمته الحقيقية ، ان يكشف .

وهكذا ، فان الالتزام يعني ، كما هو واضح الآن ، وضع الملتزم تجاه العالم : أنت مسؤول .. ولكن دعوني اقولها بطريقة أصح :  
أنا مسؤول .

اجل ، فليس ثمة من يستطيع ان يفرض هذه المسؤولية علي سوى ضميري ، سواي انا اعني .. وبالتالي ليس ثمة من يستطيع ان يمد اصبعه الى صدري ليقول لي : أنت مسؤول .. اللهم سوى التاريخ !

أنا مسؤول .. لا ارددها صراحة .. لا والا كانت حياتي مأساة حكيمة لا احتملها ، أنا الفرد الصغير في عالم كبير يستطيع ان يسحقني ، وبالصدفة تصور ، تحت عجلة سبارة سكر في الطريق ، في كل لحظة . حقا ، فمن انا ؟

ان القضية اذن معقدة الى حد لا يتصور .. هذا صحيح . ولكن ليست هي ايضا اسهل بكثير مما نتصور ؟

اذا صرخنا في اذن انسان عادي : يجب ان تلتزم .. انك تعيش في عالم أنت مسؤول عنه ، لان وجوده نابع من وجودك ، ويجب ان تلتزم جميع قضاياه ، فلا تأكل الدجاج - مثلا - حينما يجب ان تأكل الحمص او الفول ، او أن تصنع سيارات ذرية بدلا من القنابل .. فلسوف يدهش ، ويتساءل ببساطة ان لم يتهمنا باختلال التوازن : وما شأننا انا ؟ انا لا ابالي ما دمت أعيش (مثلا) . هنا تتعقد القضية

وسوف نضطر الى بذل جهود جبارة في عرضها ، وقد لا نصل الى نتيجة غير الصداغ في الرأس ان لم يكن اليأس .

أما انسان عظيم متميز ، يملك الصفات التي اشرنا اليها منذ قليل ، ومهما يكن فرديا ، فانه لا بد ان يحس بهذه المسؤولية في ذاته ، نابعة من ذاته ، دون تصميم ودون ما اقناع او توجيه من خارج هذه الذات . وهكذا ، فان التزام سارتر اصيل نابع من ذاته ، وكذلك - مثلا - هيمنفواي عندما شارك في ثورات الحرية ، في بلاد غير بلاده بقلمه وبنديته على السواء . في هذه الحالة تبدو القضية في غاية البساطة .

أنا انشأ في مجتمع يعني انني ابن هذا المجتمع لذا فان امره يهمني جدا ، لان قضيتي جزء من قضيته ، ولان مستقبله هو مستقبلي ، فهل استطيع القول : ما شأنني به ؟ اذا رفضت مجتمعي ، لانه مليء بالعيوب ، لان ضغطه

حينما طرحت قضية الالتزام في الادب ، كانت قضية الواقعية ما تزال في صراع عنيف مع المدارس الاخرى في شتى اشكالها ومناحيها ، منذ عصر النهضة حتى الحرب العالمية الاخيرة . ان شيئا ما ، قدر سخ وامسى ذا جذور عميقة مديدة ، لا يمكن استئصاله او القضاء على آثاره بسهولة ، لاسيما وان طبيعة الانسان وبيئته تتدخلان جذريا في تحديد نوعية التلقي ومن ثم التكيف والاعتقاد عند هذا الانسان . وهكذا ، فقد جاءت الحرب العالمية الثانية بنظرية الالتزام قبل ان ينتهي ذلك الصراع العنيف ، فواجه النقد تعقيدا هائلا .. هناك ادباء لا يحيدون عن الكلاسيكية او الرومانسية ، وآخرون لا يزالون يستلهمون الطبيعة ، وثمة من يرى في الجنس علة كل مشكلة وحادثة في مهازل الانسان ومآسيه على السواء .. في الوقت نفسه الذي انتشرت فيه الواقعية انتشارا واسعا ، ساعد عليه وارث ناره الفقر والقتال الدموي بين البورجوازية والبروليتارية ، حتى بلغ التطرف فيها عند اغلب آخذيها وانصارها حدا ممجوجا اسف بالفن والادب ايما اسفاف .

ولكن كل تلك الاشكال او المذاهب لاقت لطمة قاسية ، مهينة اعظم مهانة ، في اعوام الحرب الاخيرة ، بما حملته للناس من قلق وحزن ورعب وجودي ومضري أخذ من الانسان الحديث كل مقومات التماسك في الشخصية وصنع منها لبانا يتسلى بمضغه ، فاذا بمحاجر المجانين تضيق بزحام نزلاتها ، واذا بأوروبا كلها تتحول الى مستودع امراض نفسية من نوع جديد جاهزة للتصدير الى القارات الاخرى .. وفي غمرة هذا الرعب القائم ، ومن خلال صراخ الانسانية الملتاع ، هب دعاة الالتزام ، وعلى رأسهم هذا العملاق الذي يدعى جان بول سارتر ، والذي يلبس مفهومه ورسم خطوطه الاتجاهية باجتهد واخلاص ، وبحرارة حقيقية ايضا ..

ان زعيم الوجودية قرر ان المفكرين مسؤولون مسؤولية مباشرة عن خلاص العالم .. هي ذي الفكرة الاساسية للنظرية برمتها .

لذا فانه من الطبيعي ان يكونوا مؤاخذين ، استنادا الى مسؤوليتهم ، وان لم يكونوا المجرمين او المسببين - على الاقل - لما سي العالم وخاصة الحروب ، اذن عليهم ان يعملوا على اصلاح اخطاء العالم ، اخطاء الانسان .. حقا ان هناك بورجوازية وبروليتارية ، حقا ان هناك هتلر وموسوليني وشرشل وديغول وستالين ، حقا ان هناك بترول وول وحاديدا وفحما حلت محل الذهب والفضة والعاج والبهارات ، وحقا - في النهاية - ان هناك دما يهوديا في كل مكان ، بيد ان الفن والادب اكثر وجودا من كل ذلك .. الاديب والفنان هما القائدان الحقيقيان ، هما الوجهان

علي مرهق ، فان هذا الرفض يتخذ احدي صورتين ، تبعاً لحالتي :

١ - ان كنت واعياً ، كامل الإدراك للحقيقة التي اشترت اليها - كوني ابن هذا المجتمع ومسؤوليتي عنه بالتالي - فان رفضي له سيكون رفضاً عملياً ، لا رفضاً كلياً ، اي انفصلاً عاطفياً يجعلني غريباً عنه . . . فأننا رغم تميزي بحمل هويته ، احمل كل سماته وتراثه ، أنا من ثم لصيق به شديد الاتصال ، بل أنا نفسياً لست سواه . . . ان انفصالي عنه انفصال عن ذاتي ، عن نفسييتي ، ان انفصالي عنه جنون او انتحار . . . وتلك هي الانهزامية بعينها .

٢ - اما اذا كانت حالتي الفكرية - الذهنية والنفسية - على العكس من تلك الاولى ، فان رفضي سيكون رفضاً كلياً ومطلقاً ، سأنفصل عن مجتمعي واحيا في قوقعة آمال واحلام ، وفي سجن من النبد ، منهزماً ، فاي تافه اذن أنا !

وما دمت على هذه التفاهة ، فلماذا ارفض ؟ ما فائدة رفضي ، بل ما الذي يدعوني الى الرفض اصلاً ، في هذه الحالة سأكون مجرد سوفسطائي ، قد ابدع ، وقد اتى بنظرية ما ، وقد احرك فئة صغيرة من المجتمع . . . بيد ان العدمية ستكون طابع كل ذلك . . . مهما اكن عبقرياً - من أنا ؟ افلاطون لا يقينا ان « الحرب والسلام » لا فضل الف مرة من « المدينة الفاضلة » .

الرفض العقلي اذن - وعلى سبيل التأكيد لاهمية هذه النقطة في بحثنا هذا - ليس انفصلاً ولا انهزاماً ، لانه ليس رفضاً للمجتمع في ذاته كما بينت ، وانما هو رفض لشكل طالح فاسد ، اتخذ هذا المجتمع نتيجة انحرافات تاريخية وتخرت فكرية . . . والان اصبح كل شيء واضحاً لنقول :

ان الرفض ها هنا هو ثورة .

اجل هو هدم لهذا الشكل من اجل بناء شكل جديد صالح وجميل .

وانا حينما اتخذ هذا الموقف الراض ، الثوري ، واعبر عنه بوسيلتي الخاصة ، الكتابية بالنسبة للاديب ، فاني اقر حريتي في الحقيقة . اذ كيف اكون مسؤولاً اذا لم اكن حراً ؟ بدون حرية لا املك حق الموافقة او الرفض اصلاً ، وحتى اذا ملكت هذا الحق فانه يبقى عديم القيمة ما دام عديم الجدوى ، اذ لا جدوى بلا ممارسة فعلية ، بلا انتاج محسوس او ملموس للموقف الذي اتخذته . وهنا نواجه قضية جديدة : الحرية شرط للالتزام الذاتي . . . وان الحرية التي اعنيها هي الحرية الذاتية . فاذا ملكتها من البداية وكان رفضي ناتجاً عنها فان الالتزام سوف ينبع بالضرورة من ذاتي . . .

وهذه هي المسؤولية الذاتية ، الملزمة طبعا لافرضا . والان . . . في وطننا العربي هذا . . . هل فهمنا الالتزام على هذه الصورة التي حاولت ايضاحها ؟ لقد بدأت الدعوة الى الالتزام لدينا ، ان لم تخشني معلوماتي قليلاً ، منذ عشر سنوات ، وكانت وظلت حتى اليوم تتخذ طابع القسر ، هكذا :

التزم !

و « التزم » فعل امر

والمفكر ، المبدع عامة ، لا يتلقن اوامر . . . وفي ابسط صورته يمكن ان تكون مثلاً اقول ان الموظف العمادي لا بد ان يخضع للاوامر ، اما القاضي ، الشاهد الحكم ، فله امتيازات كثيرة . . . فهو حتى في تطبيقه للقانون يملك بعض الحرية .

هذا حال القاضي الموظف . . . فما بالك بالاديب او الفنان الذي يطبق « الحرية » لا القانون !

نقد قلت ان الحرية شرط للالتزام ، وهذا ما اعنيته بالضبط : ان لا يقصر المبدع على الالتزام . فاننا منذ اللحظة التي اتخذ فيها موقفي الراض اكون قد بدأت بالتعبير عن حريتي . . . اذ ذلك تبدأ معاناتي الانسانية « الفردية » بالدخول في صلب المجتمع ، فتتحول قضيتي الخاصة الى قضية عامة ، واذا أنا لا اعاني حريتي فحسب وانما اعاني ايضاً حرية البشرية جمعاء . . . لان محاولتي التعبير عن حريتي ، والتي تحلت في رفضي الواعي لنمط او انماط معينة من السلوك الانساني الذي يحدد المجتمع ويحددني بالطبع ، محاولتي هذه رسم او ايحاء لانماط جديدة من السلوك في الحقيقة يجب ان تكون محققة لحريات الاخرين واهدافهم بقدر ما هي تحقيق لحريتي وهدفي ، وكما يستطيع هذا التحقيق الشخصي ، فأننا بحسب المسؤولية النابع من ذاتي ، قد جعلت ، من غير تصميم مسبق ، شخصيتي جزءاً من شخصية المجتمع العامة ، ومن ثم حريتي جزءاً من حرية المجتمع ، فكل دفاع عن حريتي هو دفاع عن حرية المجتمع ، ان خوفي من اي شيء لا يتجاوز خوف الاخرين منه ، فنحن مرتبطون متشابكون .

واخيراً ، فان الالتزام مذهب فكري هو اقرب الى الظاهرة الانسانية منه الى المذهب السياسي او الاقتصادي . ولن يكون معقولاً او انسانياً ان تصدر « قوانين قضائية » بالالتزام ينفذها رجال الشرطة ، اذ لا بد له - في هذه الحال - من ان ينتهي الى ما انتهت اليه « الواقعية » ، وبوادر هذه النهاية موجودة اليوم في بلادنا . . . القول : مع الاسف !

عبد العزيز هلال

صدر حديثاً :

## رسائل توفيق

احدث ديوان

للشاعر العربي الكبير

سليمان العيسى

منشورات دار الاداب